

أخبار تيمورلنك عند ابن خلدون

المدرس المساعد خالد غياض سرحان مساعد

News of Timur as reported by Ibn Khaldun

gmail.com- Khaldghyadsrhan

ملخص البحث:

التقى المؤرخ ابن خلدون بالفتح (تيمورلنك) سنة ١٤٠١م، إبان حصار مدينة دمشق، وكان هذا بطلب من تيمورلنك نفسه الذي أراد مناقشته. حيث عامل تيمورلنك ابن خلدون معاملة خاصة يعمها الاحترام إذ استقبله استقبالا جميلا وأجلسه إلى جنبه وقربه منه وتم تكريمه طيلة مدة إقامته بالمعسكر ونتيجة لهذه العلاقة خلص ابن خلدون نفسه من القتل والسبي فخرج من دمشق سالماً إلى القاهرة بعد انقضاء تلك الأحداث. خلال المقابلة، وصف المؤرخ ابن خلدون تيمورلنك بأنه "ملك عظيم وجبار، مولع بالمناظرة والجدال فيما يعرفه وما يجله". دارت بينهما نقاشات موسعة استمرت ٣٥ يوماً، تضمنت مواضيع متنوعة منها تاريخ المغرب العربي، والدولة العباسية، والأبطال السابقين. كما حاول تيمورلنك جذب ابن خلدون للعمل في بلاطه، لكن ابن خلدون اعتذر ورغم جهود ابن خلدون، لكنه لم ينقذ مدينة دمشق من تيمورلنك فكان قد قرر مصيرها قبل اللقاء وبعد المفاوضات رفع تيمورلنك الحصار وأمر جيشه باقتحام مدينة دمشق، فحدثت مجزرة رهيبة وأحرق الجامع الأموي وفشلت المفاوضات في منع نهب مدينة دمشق، إذ لم يحم الوعد مدينة دمشق من الخراب والدمار، مما جعل بعض من المؤرخين يتهمونهم بالسذاجة والتواطؤ.

Research Abstract:

In 1401 CE, during the siege of Damascus, the historian Ibn Khaldun met the conqueror Timur (Tamerlane) at the latter's personal request, as Timur sought to engage him in discussion. Timur treated Ibn Khaldun with exceptional respect, receiving him warmly, seating him at his side, and honoring him throughout his stay in the camp. Due to this relationship, Ibn Khaldun was spared from death or captivity, leaving Damascus safely for Cairo after the events concluded. During their meeting, Ibn Khaldun described Timur as "a great and mighty king, fond of debate and argumentation regarding what he knew and what he did not know." Their extensive discussions lasted 35 days, covering topics such as the history of the Maghreb, the Abbasid Caliphate, and past heroes. Timur attempted to recruit Ibn Khaldun to his court, but Ibn Khaldun declined. Despite Ibn Khaldun's efforts, he could not save Damascus from Timur, as Timur had already decided its fate before the meeting. After negotiations, Timur lifted the siege and ordered his army to storm the city, resulting in a horrific massacre and the burning of the Umayyad Mosque. The negotiations failed to prevent the sack of Damascus, as promises did not shield the city from destruction. Consequently, some historians have accused Ibn Khaldun of naivety or complicity.

المقدمة:

مشكلة البحث: يقدم لنا هذا البحث نموذجاً لتفاعل ما بين المثقف مع سلطة مستبدة في لحظة أزمة. حيث تختلف الروايات التاريخية عن تفاصيل هذا المقابلة ودوافعها ونتائجها إذ تستدعي دراسة مقارنة نقدية. تكمن أهمية البحث كونه اختباراً عملياً لنظرية ابن خلدون ما بين العصبية وصراع ما بين الحضارة والبداءة، استعمل ابن خلدون المعرفة من أجل التفاوض كعملة في زمن الحرب. هنا يكمن دور الفعلي للمثقف الذي وازن بين المبادئ الأخلاقية والواقعية السياسية الإطار النظري والخلفية التاريخية.

حول ابن خلدون: يتبع مسيرته التاريخية من المغرب الى المشرق الى إن وصل الى منصبه كقاضي المالكية في مصر والتي كانت تحت حكم دولة المماليك مستقيماً من خبرته السياسية ورؤيته الواسعة. حول تيمورلنك: عرض لحملاته العسكرية والتي قيل انها وصلت إلى بلاد الشام والصور التي تصف تيمورلنك بـ (السفاح) . وتم التطرق لأوضاع مدينة دمشق أثناء محاصرة تيمورلنك لها عام ٨٠٣هـ / ١٤٠١م والانسحاب والتراجع للجيش المملوكي منها وترك دمشق ومندوبي السلطان وابن خلدون بموقف صعب مصادر البحث الرئيسية منها التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً والتي تتحدث عن سيرة ابن خلدون الذاتية ومنها كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فيه دون ابن خلدون تأريخه وقام بأرسال نسخة منه للسلطان المريني وصف فيها اوضاع دمشق وهناك مصادر تاريخية أخرى معاصرة نذكر منها ابن عريشاه في كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور حيث يقدم صورة سلبية جداً عن تيمورلنك وينتقد فيها اتفاق الأمان الذي حصل عليه ابن خلدون. ومن المصادر الأخرى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي والذي يسجل فيه أحداث الحصار ونتائجه.

التهديد:

تظهر أخبار المؤرخ ابن خلدون عن تيمورلنك اختلافاً صارخاً في الصورة. فهو يصف من ناحية الدمار والوحشية التي رافقت هجمات هذا القائد، حيث يذكر كيف أنه ملأ الدنيا وأوقع خراباً هائلاً في مدينة دمشق حيث أحرق ودمر المسجد الأموي الكبير ونهب المدينة وقتل الكثير من الأهالي بعد أن حصلوا على وعود بالأمان منه ومن ناحية أخرى يصفه ابن خلدون كشخصية معقدة، فهو محب للعلم والعلماء ويحب الحديث معهم، مستقراً بشغف عن أحوال وأوضاع بلاد المغرب العربية، إذ طلب من ابن خلدون نفسه بكتابة تقرير مفصل عن هذه البلاد وكأنه يخطط لضمها إلى مملكته في المستقبل. وتكتسب رواية ابن خلدون أهمية كبيرة لأنها تمثل شاهد عيان من أعظم مفكري ذلك العصر على واحدة من أكثر الفترات اضطراباً ودموية في تاريخ الشرق الأوسط. حيث وجد ابن خلدون نفسه بقلب الحدث حين تقطعت به السبل داخل مدينة دمشق المحاصرة بعد أن انسحب الجيش المملوكي المفاجئ منها بقيادة السلطان الناصر فرج ، مما اضطره إلى النزول من على السور من أجل التفاوض مع الفاتح المغولي طالباً الأمان. إن دراسة "أخبار تيمورلنك عند ابن خلدون" تفتح لنا نوافذ متعددة على:

١- السيرة الذاتية لابن خلدون: حيث تبين لنا براغماتية الرجل وقدرته على التكيف من أجل البقاء، بل واستغل الموقف لخدمة مصلحته الشخصية والعلمية

٢- شخصية تيمورلنك: حيث يقدم صورة عن عقلية هذا الغازي، فهو لم يكن مجرد همجي وبربري، بل كان قائداً ذاهية يستعمل العلم والمعرفة من أجل خدمة مشروعه التوسعي

٣- مأساة مدينة دمشق: حيث تروي تفاصيل دقيقة عن سقوط المدينة العريقة وكيف تبدلت آمال الأمان التي دونها ابن خلدون إلى كابوس من الدمار والنهب والحرق.

في هذا البحث، سنسعى من أجل تقصي هذه الأخبار بالتعويل على رواية ابن خلدون نفسه في المقام الأول، مسنودة بمصادر تاريخية أخرى معاصرة للحدث كتلك التي كتبها ابن عريشاه والمقريزي لتحلل أبعاد هذا الاجتماع ونفهم دلالاته العميقة التي ما زالت تثير الجدل إلى يومنا هذا

المصادر التحليلية الرئيسية للبحث

المحور الأول: رواية ابن خلدون للقائه - دوافعه وتكتيكاته .

في أوائل سنة ٨٠٣هـ جاءت الأخبار أن تيمورلنك المغولي قد هجم بجيش كبير على بلاد الشام (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج١/ص٩٦؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٩٩؛ الزركلي، ١٩٨٠، ج٥/ص١٤٠؛ د. زينب الخضير، بدون سنة نشر، ص٢٢). حيث أخرج البلاد وأهلك العباد (السيوطي، ١٤٣٤ - ٢٠١٣م، ص٧٥٨؛ العصامي، بدون سنة نشر، ج٢/ص). وارتكب تيمورلنك مجازر ومذابج مروعة في حماة وحلب وبقية المدن يروم بذلك ان يثأر للهزيمة التي وقعت بأجاده بمعركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ (المقريزي، بدون سنة نشر، ج٤/ص٦٩٢. ٦٩٣؛ ضياء الدين رجب، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص٢٢). وواصل تيمورلنك زحفه نحو دمشق وارسل الى نائبها يدعوه بها الى الاستسلام فاضطرب السكان خصوصاً عند سماعهم قصص التعذيب والتكتيل التي نشرها الهاربون من المناطق التي سيطر عليها تيمورلنك (العصامي، بدون سنة نشر، ج٢/ص٢٩٦؛ احمد عبد الكريم، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص٣٢). وكان الضعف يدب في أوصال الأمة الإسلامية بالقرن السادس والسابع من الهجرة نتيجة الصراع السياسي بين الأمراء والصراع المذهبي وتراجع وضعف روح الجهاد والقتال في النفوس (ضياء الدين رجب، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص١٤؛ مفتاح، ٢٠١١، ص١٩؛ د. محمد عابد الجابري، ١٩٩٢م، ص٢٠). ففرغت مصر لهذه الأخبار (محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص٨٠؛ ضياء الدين رجب، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص٢٢). وكانت الشام في هذه الفترة تابعة لسلطان

المماليك في مصر فارتعب الناصر عند سماعه لهذا الخبر واخذ جيشه من اجل صد الهجوم وأخذ معه ابن خلدون وكان معزولا من منصب القضاء في ذلك الوقت (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج١/ص٩٦؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٩٩؛ والتر ج. فيشل، بدون سنة نشر، ص٦٩؛ محمد العبد، ٢٠٠٩، ص٤٢؛ مصلح، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩، ص٢١٣). فاستدعاني دوداره يشبك وطلب مني السفر الى جانب السلطان فاعتذرت من ذلك لكن اظهر العزم علي ولين القول وذكر الانعام فوافقت وسافرت معهم (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج٧/ص٧٢٨). واخذ معه القضاة الاربعة والفقهاء والصوفية ومن ضمنهم ابن خلدون (محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص٨٠). الذي سافر مع معسكر السلطان الناصر فرج لقتال تيمورلنك (الطهطاوي، بدون سنة نشر، ص٨٦؛ البان سركيس، ١٤١٠هـ، ج١/ص٩٦؛ عمر كحالة، بدون سنة نشر، ج٨/ص١٩٢). في منتصف شهر المولد الكريم في سنة ثلاث وثمانمائة، حيث وصلنا إلى غزة، فأرحنا بها عدة أياما نترقب الأخبار ثم وصلنا لبلاد الشام مسابقين الطر إلى أن وصلنا شقحب وأسرينا فصبحنا بالقرب دمشق، والأمير تمر في معسكره ارتحل من بعلبك قاصداً مدينة دمشق فضرب السلطان خيامه بساحة قبة يلغا حيث اشتبك العسكران في هذه الايام ثلاث او اربع مرات فكانت حربهم سجالاً (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج٧/ص٧٢٨؛ العصيمي، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، ص١١٤). ثبت فيها المصريون واسفرت المعارك الاولى عن هزيمة تيمورلنك (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج١/ص٩٦؛ والتر ج. فيشل، بدون سنة نشر، ص٧٠؛ منصور عبد الحكيم، بدون سنة نشر، ص١٧٤). واشتبك الجيشان التيموري والمملوكي ثلاث مرات لكن دون نتيجة حاسمة (د. حسين عاصي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص١٧). وذكر أن تيمورلنك قام بنصب كمينا لقوات الناصر فرج أدى إلى مقتل عدد كبير منهم، استخدم تيمورلنك فيها اسلوب الدهاء والشائعات من اجل التمويه على قوات الناصر فرج واستخدم تيمورلنك جواسيسه ايضا من اختلاف الذي حصل بين الأمراء المماليك وبين السلطان الناصر فرج فأراد توسعت ذلك الخلاف (احمد عبد الكريم، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص٣٢؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٩٩). ثم بدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين ولكن حدث خلاف داخل معسكر الناصر وترك بعض الأمراء الناصر فرج وغادروا الى مصر خفية وعلم السلطان أن هناك مؤامرة لخلعه فترك دمشق لمصيرها ورجع الى القاهرة (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج١/ص٩٦؛ محمد عبدالله، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص٨١). في سنة ٨٠٣هـ بدون قيادة تنظم امورها وقوات تدافع عنها ... وواجه أهالي مدينة دمشق بعد مغادرة الناصر وقواته عنها موقفاً حرجاً فغلّقوا أبواب المدينة وتسلقوا اسوارها واخذوا ينادون بالجهاد بل ونجحوا في بعض الاحيان من صد لقوات تيمورلنك، عليها فأدرك تيمورلنك ان اعمال الحيلة هي أجدي له من أجل السيطرة والاستيلاء على المدينة من شروع اقتحامها فقد كان هدف دخول دمشق بأقل الخسائر الممكنة ومن اجل هذا أرسل تيمورلنك شخصين من اتباعه يقترحان على سكان مدينة دمشق اتفاق الصلح وبعد مناقشات وخلافات قبل هؤلاء على بعث القاضي ابن مفلح الحنبلي الى الأمير تيمورلنك من اجل التفاوض على شروط التسليم اذ استعمل تيمورلنك اسلوب ومنهج الخداع مع القاضي ابن مفلح الحنبلي حيث وعده بالانسحاب بعد إعطاء سكان مدينة دمشق (الطقزات) (ابن مفلح الحنبلي : قاضي القضاة تقي الدين بن العلامة شمس الدين الحنبلي الدمشقي قاضي قضاة الحنابلة بدمشق كان إماماً فقيهاً، عالماً فاضلاً : ابن تغري بردي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ج١/ص٣٠؛ احمد عبد الكريم، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص٣٤). وعلى اثر ذلك وقع خلاف بين الرؤساء والقادة حول تسليم دمشق وهنا تخط المؤرخ نزعة المجازفة كما تغلبه الأثرة حيث خشي على نفسه من وقوع المدينة بيد الفاتح ويكون نصيبه النكال او الموت ورأى ان يلتجئ بالجرأة ويغادر جماعة المترددين ويذهب الى معسكر الفاتح من اجل الحصول على الأمان لنفسه ومصيره فيقولها المؤرخ بصراحة معلقاً على ما حدث بين القادة من خلاف "وبلغني الخبر فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب وطلبت الخروج أو التخلي من السور لما حدث عندي من توهّمات ذلك الخبر" (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص٤٠٩؛ محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص٨١-٨٢؛ حسين عبدالله بانبيله، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٥٢؛ والتر ج. فيشل، بدون سنة نشر، ص٧١؛ أكرم حسن العلي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص١٦٣).

المحور الثاني: صورة تيمورلنك في عيون ابن خلدون - بين الإعجاب والتقييم.

يقول ابن خلدون: وجاءني القضاة والفقهاء واجتمعوا بمدرسة العادلية وأجمع رأيهم على طلب الأمان من (تيمورلنك) على بيوتهم وحرّمهم واستشاروا في ذلك نائب القلعة فرفض عليهم ذلك الطلب ونكره فلم يوافقوا (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج١/ص٩٦؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص٤٠٧-٤٠٨؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٩٩؛ حسين عبدالله بانبيله، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص٥٢). فخرج القاضي برهان الدين وكان معه شيخ القراء فطلب منهم تيمورلنك إحضار الوجوه والقضاة من اجل ان يكتب لهم الأمان (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج١/ص٩٦؛ المقرئ، بدون سنة نشر، ج٤/ص٦٩٢-٦٩٣). ويؤيد هذه الرواية ابن إياس هو مؤرخ مصري آخر، فيقول لنا إن الزعماء اختاروا القاضي ابن مفلح للتفاوض لأنه كان يعرف التركية (محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص٨٤). وأخبرني القاضي برهان الدين أن

تيمورلنك سألني هل أقام بالمدينة أو سافر مع عساكر مصر، فأخبره بمقامي بالمدرسة وبتنا في هذه الليلة على أهبة الذهاب إليه فوقع تشاجر بين بعض الناس في المسجد الجامع (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٢٨٨؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ٩٧؛ د. علي عبد الواحد وافي، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٩٩؛ روبرت ارون، ٢٠٢٢، ص ١١٤). وكان ابن خلدون من اعلام الاعيان الذي قدم مع السلطان وعندما انتقل السلطان انفرك وكأنه كان غافلا وكان ابن خلدون نازلا بالمدرسة العادلية فذهب هؤلاء الاعيان إليه من اجل تدبير هذه القضية فوافق ابن خلدون فكرتهم فملكوه بذلك أمرهم وما كان بوسعهم إلا استصحابه وكان ابن خلدون أصمعي الرواية والمخبر مالكي المذهب والمنظر فذهب معهم بعمامة خفيفة وشكل ظريف رقيق الحاشية وبرنس كهو اشبه بدامس الليل الناشية فحضرنا بين يديهم واقتنعوا بأقواله وافعاله عليهم: (ابن عربشاه، ٢٠٠٨، ص ١٤٠؛ ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ٧/ ص ٧٣١). عندما اجتمع في المدينة الاعيان والكبراء والرؤساء وهم كل من قاضي القضاة شهاب الدين وقاضي القضاة محيي الدين محمود وقاض القضاة شمس الدين محمد الحنبلي وقاض القضاة تقي الدين ابراهيم بن مفلح الحنبلي والقاضي جمال الدين الآثاري الشافعي والشيخ ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي المالكي صاحب التاريخ المعروف، هؤلاء الاعيان خرجوا وطلبوا من تيمورلنك الأمان بعد ان نظمت كلمتهم وتشاوروا في سلك الوفاق فتلقاهم تيمورلنك بالإكرام وأجلسهم بين يديه ووافق على بعض ما طلبوا منه ووعدهم بالأمان (ابن عربشاه، ٢٠٠٨، ص ١٤٠؛ ابن تغري بردي، ٢٠٠٥ م، ج ١٢/ ص ٢٠٧؛ المقريزي، بدون سنة نشر، ج ٤/ ص ٦٩٢. ٦٩٣؛ ابن حجر العسقلاني، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ج ٣/ ٣٢٦؛ د. علي عبد الواحد وافي، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٩٩). وفي هذا الوقت كان تيمورلنك بمعسكره خارج المدينة فالتقى به ابن خلدون وقام معه حوارات في الكثير من المواضيع الدينية والتاريخية وتوسط ابن خلدون عند تيمورلنك في بعض امور مدينة دمشق فوافق تيمورلنك على طلبه: (احمد عبد الكريم، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٣٤). واتفقوا مع تيمورلنك على فتح مدينة دمشق من الغد وتصرف الناس بالمعاملات، ويدخل أمير ينزل محل الامارة منها، فيملك أمرهم بعز ولايته (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٤٠٨). دامت المفاوضات أربعين يوماً: (ضياء الدين رجب، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٢٢). ويقول ابن خلدون كنت في تلك الليلة على أهبة الاستعداد من اجل الخروج إليه فوقع شجار بين بعض الناس في المسجد الجامع، انكر البعض منهم ما وقع وبلغني الخبر في جوف الليل فخفت البادرة على روحي وبكرت سحرا لجماعة القضاء عند البوابة وطلبت الخروج والتدلي من السور فأبوا علي أولا ومن ثم وافقوا لي ودلوني من السور فوجدت حاشيته عند الباب ونائبه شاه ملك الذي تم تعيينه لولاية دمشق (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٢١٢١؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ٤٠٩؛ حسين عبدالله بانبيله، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٥٢). وقدم لي شاه ملك وهو نائب الذي تم تعيينه على دمشق مركوبا (دابة اركبها) وارسل معي شخص من بطانة السلطان أوصلني اليه ولما وقفت بالباب وافق بإجلاسي في خيمة تجاور خيمة جلوس تيمورلنك ثم اخذ بالتعرف باسمي فقلت اني القاضي المالكي المغربي فدعاني فدخلت عليه بخيمته وكان متكئا على مرفقه وكانت صحاف الطعام تمر حوله وهو يشير بها الى عصب المغل الذين كانوا جالسين امام خيمته (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٢٨٩؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ج ٧/ ص ٧٣١). فلما دخلت عليه فاتحته بالسلام وأوميت بالخضوع له فرفع رأسه وقام بمد يده إلي فقبلتها ثم أشار الي بالجلوس فجلست حيث انتهيت وقام باستدعاء بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان وهو من فقهاء الحنفية بخوارزم فجلس يترجم ما يدور بيننا من حديث (عبد الجبار بن النعمان المعتزلي، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد، واهلكوا العباد، وأظهروا الظلم والفساد: ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٢٨٩؛ العاملي، ١٤٢٦ - ٢٠٠٦ م، ص ٢٨٢؛ د. علي عبد الواحد وافي، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ١٠٠؛ والتر ج. فيشل، بدون سنة نشر، ص ٧٤؛ أكرم حسن العلي، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ص ١٦٣). وسألني من اين جئت، قلت له من المغرب فقال ولما جئت ؟ قلت جئت من بلادي لقضاء الفرض فركبت إليها البحر ووصلت مرسى الاسكندرية في سنة أربع وثمانين من المائة الثامنة والمفرحات بأسوارها جلوس الظاهر على فراش الملك لتلك العشرة الأيام فقال لي وماذا فعل معك ؟ فقلت فعل معي كل الخير أنه بر مقدمي وزودني للحج وأرغد قراي وعندما رجعت وفر جرايتي ومكثت في ظله ونعمه، فقال: وكيف كان تولى اباك القضاة ؟ فقلت له: مات قاض المالكية وقبل موته بشهر، اذ كان يظن بي المقام الحسن من اجل القيام بالوظيفة ونشرا العدالة والحق والإعراض عن العز والجاه، فجعلني مكانه ومات بعدها بشهر (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ٧/ ص ٧٣١؛ محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م، ص ٨١). وقال لي اين والدك فقلت له بالمغرب الجواني يعمل كاتب للملك الأعظم هناك ثم قال وماذا يقصد الجواني في وصف بلاد المغرب فقلت له هو تراث خطابهم ومعناه الداخلي ويقصد به الأبعد (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ٧/ ص ٧٣١؛ والتر ج. فيشل، بدون سنة نشر، ص ٧٤). لأن المغرب جميعه على ساحل البحر الشامي من جنوبه، والأقرب الى هنا برقة وافريقية اما المغرب الأوسط تلمسان وبلاد زناته، الأقصى يشمل فاس ومراكش، ويطلق عليه الجواني. فقال لي: واين تقع طنجة من ذلك المغرب ؟ فقلت له: في الزاوية ما بين البحر المحيط، والخليج الذي يسمى بالزقاق هو خليج البحر الشامي ؟ فقال لي: وسبته: فقلت له: على مسافة من طنجة تقع على

ساحل الزقاق، ومنها الى الأندلس، لقرب المسافة، لأنها هناك على بعد نحو العشرين ميلاً. ثم قال وفاس ؟ فقلت له: أنها ليست على البحر وانما في وسط التلول، وهي كرسي ملوك بلاد المغرب من بني مرين. ثم قال وسجلماسة^٢ فقلت له: تقع ما بين الأرياف والرمال وهي من جهة الجنوب. فقال لي: لا يقتعني هذا الكلام، وأفضل أن تكتب لي عن بلاد المغرب كلها، من اقصاها وأدانيها وأنهاره وجباله وقراره وأمصاره، حتى كأني أتابعه فقلت له يحصل ذلك بسعادتك فكتبت له بعد خروجي من المجلس ما طلب من ذلك (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٤١١). وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر ثنتي عشرة من الكرايس المنصفة القطع" ولعل تيمورلنك كان يقصد بذلك غزو المغرب وأراد أن يقف بذلك على تفاصيل هذه البلاد ومواقعها الجغرافية: (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ٩٨٩٧؛ ابن حجر العسقلاني، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ج ٣/ ص ٣٢٦؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٩٩؛ د. المصدر نفسه، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٠١) ونحن نرى ان الهدف واضحاً هو استغلال معرفة ابن خلدون الاستخبارية لخدمة مشروع وخطط تيمورلنك التوسعية في المستقبل نحو الغرب الإسلامي. اما في شأن مدينة دمشق فقد وقعت مفاوضات بين الفاتح والمؤرخ استطاع ابن خلدون أن يوقع الفقهاء الرؤساء بالتسليم حيث فتحت دمشق أبوابها على أثر تلك المفاوضات وجاء الرؤساء والقضاة ومن بينهم أبن خلدون إلى معسكر تيمورلنك من أجل تقديم الطاعة والخضوع له ويقول ابن خلدون ان تيمورلنك صرف هؤلاء وإبقاه هو ثم انصرف ابن خلدون واخذ يكتب رسالة بوصف بلاد المغرب حتى أكملها التي بلغت حوالي اثنتي عشرة كراسة، ثم قام بتقديمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها وتحويلها إلى اللغة المغولية: (محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص ٨٣). ثم أشار الى الخدم بإحضار الطعام من بيته وكان يسمونه الرشقة فأحضرت الأواني وأشار بعرضها علي فقامت وتناولتها وشربت واستطبت وكان ذلك منه افضل المواقع ومن ثم جلسنا وسكتنا: (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٢٩٠). وبينما هم جالسين في حضرة الأمير تيمورلنك إذا بالقاضي صدر الدين المنادي أسير في أيديهم وكان قد اتبع السلطان في الهرب فتم القبض عليه وأحضره بين يدي إذا يرتدي عمامة كالبرج، وأردان كالخرج فتجاوز الرقاب وجلس من غير رخصة فوق الصحاب فاستشاط تيمور غاضبا وجعل المجلس لهياً وتنفخ سحره وشجر غيظاً وشجر ونخر ثم أمر مجموعة من المعتدين بالتككيل وتعذيب القاضي صدر الدين: (عبد الرحمن بدوي، ٢٠٠٦، ص ٣٠٩؛ أكرم حسن العلي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١٦٤). ويظهر أن ابن خلدون قد عاوده وساوره الحنين الى السياسة فكان يعلق بصلته بتيمورلنك أمال أخرى غير الامور التي تخص دمشق وزملائه القضاة والعلماء وكان يرجو من ذلك الانتظام في بطانة الفاتح والتقرب لديه فأخذ يطنب في مدحه ذاكر له أنه كان يتشوق الى لقائه منذ فترة طويلة وكان يتنبأ له بمستقبل بملك عظيم مستند على صحة تلك التنبؤات من خلال حقائق الاجتماع ومن أقوال المنجمين والمتنبئين بالغيب: (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ٩٨؛ محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص ٨٥). ولعل ابن خلدون قد رأى سذاجة في تيمورلنك وحبا في المدح فأخذ ينفخ في شخصه بهذه التنبؤات ويحكي ابن خلدون ما قاله لتيمورلنك بدون ان يوضح بما دعاه إلى ذلك اذ يقول "ففاتحته وقلت له ايدك الله، لي اليوم ثلاثون او أربعون سنة أتمنى لقاءك فقال لي الترجمان عبد الجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران، الأول: أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما اعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف، فإنني من أهل العلم..." أما الأمر الثاني الذي حملني على لقائه هو ما سمعته من أهل الحدثان والأولياء بالمغرب وهؤلاء هم المنجمون والمتنبئين والملمهون بالغيب في حوادث العالم وكانوا في المغرب وذكر طائفة من هؤلاء أقوال تنتبأ له بملك عظيم: (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ٩٨؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ٤١٤؛ والتر ج. فيشل، بدون سنة نشر، ص ٧٦؛ أكرم حسن العلي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١٦٤). وذكر بعض العلماء أنه عندما اقبل ابن خلدون على تيمورلنك قال له ابن خلدون دعني اقبل يدك فقال له تيمور ولم ؟ فقال له: لأن مفاتيح الاقاليم يشير إلى فتح خمسة اقاليم واصابع يده هي خمسة فلكل اصبع إقليم هذا يدل ايضا على دهاء ابن خلدون: (التلمساني، ١٩٦٨، ج ٢/ ص ٥٢٣؛ العاملي، ١٤٢٦ - ٢٠٠٦م، ص ٢٨٢). ثم قال ابن خلدون لتيمورلنك إني ألفت كتابا عن تاريخ العالم فقال له تيمورلنك كيف ساغ لك أن تذكرني به وتذكر بختنصر مع أننا دمرنا العالم؟ فقال ابن خلدون أعمالكم العظيمة أضافتكم بالذكر مع ذوي المنازل الجسيمة فأعجبه ذلك: (التلمساني، ١٩٦٨، ج ٢/ ص ٥٢٣؛ العاملي، ١٤٢٦ - ٢٠٠٦م، ص ٢٨٢). وذكرت ما قصته من قبل. فقال لي: وألاحظك قد ذكرت بختنصر و كسرى، وقيصر، والإسكندر، ولم يكون في عدادهم، فأنهم ملوك أكابر. وبختنصر هو قائد من قواد الفرس، اما أنا نائب من نواب مالك التخت، وهو هذا، ولوح الى الصف القائمين خلفه، وكان وقفا معهم وهو ربيبه الذي اتضح لنا أنه تزوج من أمه بعد وفاة أبيه ساطلمش، وذكر له القائمون في عند ذلك الصف أنه خرج منهم. فرجع إلي وقال: ومن أي المذاهب هو بختنصر، فقلت نعم هكذا ذكروا، فقال لي: ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمهات. ثم أدت مع عنه من الفرس الأولى، فقال لي: يعني من ولد منوشهر، فقلت نعم هكذا ذكروا، فقال لي: ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الأمهات. ثم أدت مع الترجمان في تفخيم هذا القول منه فقلت له: وهذا هو الذي يجعلني على بني لقائه: (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ٧/ ص ٧٣٣؛ والتر ج. فيشل

، بدون سنة نشر ، ص ٧٧). فقال لي الملك: واي القولين أفضل عندك فيه، فقلت له أنه من ملوك بابل، فمضى هو الى ترجيح الرأي الآخر، فقلت له يعكر تملينا رأي الطبري، فهو مؤرخ الأمة ومحدثهم ولا أرجح غيره، فقال لي: وما علينا من الطبري، نأتي بكتب التاريخ للعرب والعجم ونناظر بعضنا. فقلت وأنا ايضا (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ٧/ ص ٧٣٣). سار تيمورلنك نحو مدينة دمشق، ونزل في تربة منجك بالقرب من باب الجابية، فقام هناك، ودخل عليه القضاة وأعيان البلد، ودخلت أنا معهم، فأشار اليهم بالذهاب، وطلب من نائبه شاه ملك أن يخلع عليهم وظائفهم، ثم أشار إلي بالجلوس فجلست بالقرب منه. ثم دعا أمراء دولته القائمين بأمر البناء فجلبوا عرفاء البنيان المهندسين، وتناقشوا في إذهاب الماء الدائر بحفرة القلعة، لعلهم يجدون بالصناعة على منفذه فتناقشوا في مجلسه فترة طويلة ثم انصرفوا وانصرفت أنا الى بيتي في داخل المدينة بعد أن طلبت الإذن في ذلك فأذن فيه (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ٧/ ص ٧٣٤). وكان أيام وجودي عند السلطان تمر جاء إليه رجل من القلعة يوم من أهلها من سلاطات الخلفاء بمصر يعود إلى ذرية الحاكم العباسي الذي تم تنصيبه من قبل الظاهر بيبرس فجاء إلى السلطان تمر يطلب النصفة في أمره ويطلب ايضا منه منصب الخلافة كما كانت لأهله فقال له السلطان تمر أنا أجلب لك الفقهاء والقضاة فإن قضوا لك بشيء أنصفتك فيه وقام باستدعاء الفقهاء والقضاة واستدعاني ايضا (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ٧/ ص ٧٣٥.٧٣٤؛ المصدر نفسه ، بدون سنة نشر ، ص ٤١٧). فحضرنا عنده وأتى هذا الرجل الذي يطلب منصب الخلافة فقال له الترجمان عبد الجبار هذا مجلس (النصفة) فتكلم فقال الرجل إن هذه الخلافة لنا ولأهلنا وإن الحديث صح بهذا الأمر لبني العباس ما أبقيت الدنيا يعني حال الخلافة وإني أحق بها من صاحب المنصب حاليا بمصر لأن آبائي الذين أورثتهم كانوا قد استحقوه وأصبح إلى هذا بغير مستند، فاستدعى الترجمان عبد الجبار جميعنا في أمره، فسكتنا لحظة، ثم قال لنا: ما تقولون في هذا الحديث؟ فقال له برهان الدين بن مفلح: أن هذا الحديث ليس صحيح واستدعى ما عندي في هذا فقلت له: الأمر كما قلت من أنه ليس صحيح، فقال السلطان تمر: ما الذي جعل الخلافة لبني العباس لهذا العهد في الإسلام (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ٧/ ص ٧٣٥.٧٣٤؛ المصدر نفسه ، بدون سنة نشر ، ص ٤١٨). وشافهني بالقول، فقلت له: أيدك الله. اختلف المسلمون بعد وفاة النبي (ص) هل يجب على المسلمين ولاية شخص منهم يقوم بحالهم في دينهم ودنياهم، او لا يجب ذلك؟ حيث ذهبت طائفة على أنه لا يجب ذلك، ومنهم الخوارج، وذهبت جماعة إلى وجوبه فاختلّفوا وتباينوا في مستند ذلك الوجوب، وذهب الشيعة جميعهم إلى حديث الوصية، وأن النبي (ص) قد أوصى بذلك لعلي، واختلفوا بتتقلها عنه إلى بعده إلى مذاهب عديدة تشذ عن الحصر. وأجمع أهل السنة على نكران هذه الوصية، وأن مستند الوجوب في هذا إنما هو الاجتهاد، يعنون بذلك أن المسلمين يجتهدون في انتخاب رجل من أهل الحق والعدل والفق، يفوضون أمورهم إليه والنظر فيها (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ٧/ ص ٧٣٥.٧٣٤؛ المصدر نفسه ، بدون سنة نشر ، ص ٤١٩). وعندما تعددت فرق العلوية وتحولت الوصية بزعمهم من بني الحنفية وتحولت الى بني العباس فقد أوصى بها "أبو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس" وبث دعائه في بلاد خراسان. فقام أبو مسلم بتلك الدعوة؛ فملك خراسان والعراق وأخذ شيعتهم الكوفة، واختاروا لهذا الأمر أبا العباس السفاح وهو صاحب هذه الدعوة، ثم طلبوا أن تكون بيعته بأجماع من أهل الشيعة والسنة، فكتب كبار الأمة يومئذ، واصحاب الحل والعقد، بالعراق والحجاز، يشاورونهم في أمره، حيث وقع اختيارهم جميعهم على الرضي به، فبايع له الشيعة بالكوفة ببيعة إجماع. ثم عهد بها بعده إلى أخيه المنصور. وعهد بها المنصور بعده إلى بنيه، فلم تزال متناقلة فيهم أما بعهد او اختيار أصحاب العصر الى أن جاء المستعصم آخرهم ببغداد فلما استحوذ عليها هولاكو وقتله تفرق قرابته وذهب بعضهم إلى مصر وهو أحمد الحاكم من بعد الراشد فتم تنصيبه من قبل الظاهر بيبرس على مصر بموافقة أهل الحل والعقد من الفقهاء والجند وتحول الأمر في بيته الى ذلك الذي بمصر لا يعلم خلاف ذلك فقال له تيمور: قد سمعت ما قاله لك القضاة، وأهل الفتيا، أذن ليس لك حق تطلبه مني فانصرف راشداً (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ٧/ ص ٧٣٥.٧٣٤؛ المصدر نفسه ، بدون سنة نشر ، ص ٤١٩). لكن ابن خلدون لم يوفق في تحقيق ما يطمح له من تيمورلنك اذ لم تمض أسابيع قليلة حتى كره البقاء في دمشق وطلب الأذن من تيمورلنك من اجل الرجوع إلى مصر فأذن له (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ١/ ص ٩٨؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ١٠٢؛ حسن عبدالله بانبيله، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٥٢). فضلا عن فشل ابن خلدون في الوصول إلى يرقوه من تيمورلنك فإن رحلته هذه كانت مغرماً كبيراً له اذ تجشم إثنائها هديتين تم تقديمها الى تيمورلنك وعند عودته فقد جميع ما كان معه من متاع ومال اذ يصف ابن خلدون الهدية الأولى التي تم تقديمها الى تيمورلنك فيقول ابن خلدون كنت لما تدليت من السور كما مر سابقا أشار الى بعض الأصدقاء ممن يخبر احوالهم وله معرفة بهم فأشاروا أن اقدم هدية له وإن كانت نزره فاخترت من سوق الكتب مصحفاً رائع وجميل وسجادة انيقة وايضا نسخة من قصيدة (البردة الشهيرة) للأبوصيري والتي كانت في مدح النبي (ص) وأربع علب حلوة فاخرة من مصر (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ج ١/ ص ٩٩؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر ، ص ٤٢١؛ ضياء الدين رجب، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م ، ص ٢٢؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م، ص ١٠٣). فدخلت عليه وهو جالس بالقصر الأبلق فلما رأيته مقبل عليه فقام وأشار لي عن يمينه فجلست قليلاً ومن ثم استدرت بين يديه ثم قدمت له الهدية التي كان يحملها احد خدامي فوضعتها واستقبلني من ثم فتحت له المصحف وعندما شاهده وعرفه قام ووضعه على رأسه وبعدها ناولته البردة فسألني عنها وعن منظمها فأخبرته عن أمرها ثم أعطيته السجادة فأخذها وقبلها ومن ثم قمت بوضع علب الحلوى بين يديه فتناولت منها حرفاً للتأنيس بذلك وأخذ تيمورلنك وقسم ما فيها من الحلوى على الحاضرين في مجلسه وتقبل هذا وأشعر بالرضى به (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ٩٩؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ٤٢١-٤٢٢؛ ضياء الدين رجب، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص ٢٢). ثم حومت على الكلام بما كان عندي في شأن روحي، وشأن أصحاب كانوا لي هنالك. فقلت له أيدك الله، لي كلام اود أنكره بين يديك فقال لي: قل. فقلت له أنا غريب بهذه الأوطان غربتين واحدة هو وطني ومنشأى والأخرى من مصر بها أهل جيلي، وقد حصلت في ظلك وسلطانك وأنا أطلب رأيك لي بما يؤنسني في غربتي، فقال لي: قل الذي تريده أعمله لك، فقلت له: حال الغربة أنستني ما أريده وعساك - أيدك الله - أن تقدم لي ما أريد فقال لي: انتقل من مدينة إلى الأرو عندي وأنا إن شاء الله أفي بما تطلبه. فقلت أمر لي بذلك نائبك (شاه ملك) فأشار إلى نائبه بإمضاء ذلك، فشكرته وقلت له: بقيت لي أخرى فقال لي: وماهي. فقلت له هؤلاء المخلفون عن السلطان. من الموقعين، والقراء والدواوين والعمال اصبحوا إلى إيلالك والملك لا ينسى مثل هؤلاء فنفوذكم كبير وعمالاتكم واسعة، وحاجة ملكك إلى المتصرفين في حواش الخدم أشد من حاجات غيركم، فقال لي وما تريده لهم قلت له: مكتوب أمان لهم يستليمون إليه، ويعولون عليه في أحوالهم فقال لكاتبه: اكتب لهم أمان بذلك، فشكرته ودعوت له وخرجت مع كاتبه حتى كتب لي ولهم مكتوب الأمان، وختمه (شاه ملك) بخاتم السلطان، ثم انصرفت إلى منزلي (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٤٢٣). يصف ابن خلدون الهدية الثانية اذ يقول لما قرب سفره وقرر الرحيل من بلاد الشام دخلت عليه في احد الايام فلما قضينا من المعتاد التقت إلي وقال هل عندك بغلة هنا فقلت له نعم قال حسنه فقلت نعم قال لي وتبيعها فأنا اشتريها منك فقلت له أيدك الله يا أمير ؟ مثلي إنا لا يبيع من مثلك وإنما أنا اخدمك بها وبأشباهها لو كانت لي، فقال تيمورلنك إنما أردت ان أكافئك عليها بالإحسان فقلت له وهل بقي إحسان بعد ما أحسنت به علي اصطنعتني واحللنتي وقربتني من مجلسك موضع خواصك وقابلتني من الخير والكرامة بما أرجو الله ان يعطيك بمثله وسكت، وحملة البغلة وأنا في المجلس عنده ولم أرها بعد (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ٩٦؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ٤٢٣؛ د. علي عبدالواحد وافي، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٠٣). وأرسل اليه تيمورلنك ثمنها فيما بعد، عقب وصول ابن خلدون إلى مصر (محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص ٨٠). ثم دخلت عليه في أحد الايام فقال لي: أتسافر إلى بلاد مصر، فقلت له أيدك الله، رغبتني هي أنت وأنت قد كفلت وآويت، فان كان الرحيل إلى مصر يخدمك فنع، وإلا فلا حاجة لي فيه، فقال لي: لا، بل تسافر إلى أهلك وعيالك، فاستدار إلى ابنه، وكان مسافراً إلى شقحب لأجل مرباع دوابه، وأخذ يكلمه، فقال لي الفقيه الترجمان عبد الجبار والذي كان يترجم لنا: إن السلطان تمر يوصي ابنه بك، فشكرته ودعوت له، ثم رأيت السفر مع ابنه غير واضح الوجهة، والسفر إلى صفد هو أقرب السواحل إلينا، فقلت له هذا، فأجاب إليه وأوصى بي شخص كان متوجهاً إلى هناك كان عند حاجب صفد ابن الداويدي فودعته وذهبت، واختلفت الطريق مع هذا القاصد، فذهبت عنه وذهب عني وسافرت مع جمع من أصحابي. (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٤٢٤). ويذكر ابن خلدون في محل آخر أن تيمورلنك أرسل إليه ثمن تلك البغلة وإن كان قد جاء إليه ناقصاً، فيقول ابن خلدون "قبعث إلي يقصد أحد السفراء الذين كان قد أرسلهم سلطان مصر إلى تيمورلنك لإبرام الصلح مع بعض أصحابه يقول لي إن الأمير تمر (تيمورلنك) قد بعث معي إليك ثمن البغلة التي ابتاع منك. وهي هذه فخذها، فإنه عزم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا. فقلت: لا أقبله إلا بعد إذن من السلطان الذي بعثك إليه، وأما دون ذلك فلا ومضيت إلى صاحب الدولة فأخبرته الخبر، فقال: وما عليك ؟ فقلت إن ذلك لا يجعل بي أن أفعله دون اطلاعكم فأغضى عن ذلك، وبعثوا إلي بالمبلغ بعد مدة واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيته كذلك. وحمدت الله". (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ٩٩-١٠٠؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ١٢٥، المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ٤٢٥). ويصف ابن خلدون ما تعرض له أثناء عودته من ضياع متاعه وماله فيقول: وسافرت مع نفر من أصحابي، فاعترضتنا مجموعة من العشير، قاموا بقطع طريقنا ونهبوا ما معنا، فنجونا إلى قرية هنالك عرايا. وتواصلنا بعد يومين أو ثلاثة بالأهالي فخلفنا بعض الملبوس (ابن خلدون، بدون سنة نشر، ص ٢٩٧؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ج ١/ ص ١٠٠؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ٢١٢٥؛ المصدر نفسه، بدون سنة نشر، ص ٤٢٥). وهنا يهتف ابن خلدون فرحاً بنجاته "وحمدت الله على الخلاص" ويذكر لنا انه كتب لسلطان المغرب مولاه السابق، حيث يصف بها هذه الحوادث وما دار بينه وبين تيمورلنك اذ يصف له الفاتح تيمولنك وعظم بأسه وواسع ملكه وروعة سلطانه (محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، ص ٨٠). لم ينجح ابن خلدون في مهمته مع أنه مكث عند الطاغية فترة خمسة وثلاثين يوماً. (حسن عبدالله بانيله، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٥٢).

استخدم تيمورلنك أسلوب المضلل والمخادع مع القاضي ابن مفلح حيث وعده بالانسحاب من مدينة دمشق بعد تقديم سكانها (الطقزات) وهي هدايا حسب عادات المغول (احمد عبد الكريم، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٣٤). فتحت مدينة دمشق ابوابها بعد هذا الاتفاق لكنها لم تتجح من فتك تيمورلنك وتنكيله (ضياء الدين رجب، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ، ص ٢٢). حيث تراجع إلى ما كان عليه من غوائله ومصائبه فألبس كل واحد من هؤلاء الأعيان خلعه وأمكته عنده في رفعة وعزة ثم قام بردهم منشرحي الصدور وفي نفسه شرور (ابن عربشاه، ٢٠٠٨ ، ص ١٤٢). وشرط لهم ولأهلهم الأمان شرط ان يرفعوا له اموال السلطان وللأمراء من ائثال ومتعلقات واموال ودواب ومواشي وحواش الممالك ففعلوا ما طلب منهم ورفعوا إليه ما ظهر من ذلك وما بطن (ابن عربشاه، ٢٠٠٨ ، ص ١٤٢). كما أخذ تيمورلنك بخداع أهل دمشق حيث صالحهم على مبلغ قدره ألف ألف دينار وقاموا بفتح باب من ابوابها له وأخذوا بجمع الاموال من الناس حسب قدر طبقاتهم خارجاً والاستيلاء على خيل الهاربين من جيش السلطان وسلاحهم وعندما حمل إليه ذلك فرض عليهم بعد ذلك مبلغ عشرة آلاف دينار اذ استخرجت تلك بأعظم مشقة ومن ثم قام بتفريق حارات المدينة على أعيان عسكره وأمرائه فعاثوا فيها فسادا واستخرج من أهل دمشق ما قدروا عليه بعد أن سلبوا وقتلوا النساء الذراري ومن ثم أمر بحرق البلد فأحرق عن آخره، اذ لم يبق بها رسم لدار ولا خط يعرف (القلقشندي، بدون سنة نشر ، ج ٢/ ص ١٩٢.١٩٣). وجمع القضاة والأعيان مقدار المبلغ الذي أراده تيمورلنك لكنه لم يرضى به وألقى القبض على هؤلاء وحبسهم حتى انضبطوا بجمع مبلغ مقداره عشرة ملايين دينار من الذهب ثم اصدر اوامر لقواته بحصار قلعة دمشق حتى خضعت بعد قتال شديد استمر حوالي تسعة وعشرين يوماً على رغم من قلة عدد المقاتلين فيها ورفض مرة اخرى تيمورلنك هذا المبلغ الذي تم جمعه من اوقاف المساجد والمعاهد والمدارس والربط والزوايا وكانت حجتة اختلاف العملة وفسادها اذ قدر ذلك المبلغ بثلاث ملايين فقط كما قام بتصدير ممتلكات واموال الناصر فرج كما استولى على اموال وممتلكات كل شخص هرب من مدينة دمشق (احمد عبد الكريم، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٣٦). فنزل بالناس في جمع هذا بلاء عظيم كذلك عوقب كثير منهم بالضرب وأشغل كل أحد بما هو عليه فغلت الأسعار ونقص وجود الأقوات وبلغ سعر المد من القمح أربعة أقداح إلى أربعين درهما من الفضة وتعطلت الجمعة والجماعة في دمشق كلها فلم تقم فيها جمعة سوى مرتين (ابن أياس، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م ، ج ١/ ص ٦١٢). ودمرت مراكز البريد ونزل بالبلاد من الفتن والمحن فأختل بانقطاعه طريق بلاد الشام خلافاً فاحشاً (المقريزي، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، ج ١/ ص ٢٨٦) بعد أن قسم تيمورلنك أحياء مدينة دمشق على امرائه وأتباعهم وحواشيهم اطلقهم داخلها فعاثوا فيها فساداً ثم طلبوا لأنفسهم اموالا طائلة ولما عجز السكان عن تسديدها أنزل جنود تيمورلنك بهم أشد أنواع العقوبات من العصر والضرب والحرق وارتكاب الفاحشة حيث دخل بعض هؤلاء الأمراء مع اتباعهم إلى مدينة دمشق وسيوفهم مسلولة مشهورة فقاموا بالنهب والسبي قدر وسعهم واخيراً أشعلوا النار في المساجد والمنازل لاسيما (جامع بني امية) الذي تهدمت سقفه وحائطه وهلك أغلب سكان المدينة واخيراً غادر الأمير تيمورلنك مدينة دمشق في نهار السبت الثالث من شهر شعبان في سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠١ م مصطحباً معه عند عودته كل العمال والحرفين والمهرة وبذلك خسرت دمشق قدرتها الاقتصادية والصناعية لفترة طويلة (احمد عبد الكريم، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، ص ٣٧) بعد سقوط المدينة حاصر تيمورلنك قلعة دمشق التي كان يحتمى بها بعض المقاتلين، حيث نصب عليها ٦٠ منجنيقاً واجبر من كان فيها على الاستسلام ثم حطم القلعة وطمس معالمها وضاق الحصار بأهل القلعة وتحطم بناؤها من كل جهة، فطلب أهلها الأمان. وكان بها مجموعة من خدام السلطان، فأمنهم السلطان تمر، وجاءوا عنده. وهدم القلعة وطمس معالمها، وصادر قناطير من الأموال استحوذ عليها بعد أن كسب جميع ما تركه صاحب مصر هنالك من الخيام والأموال والظهر ثم أطلق أيدي السلاية على بيوت أهل مدينة دمشق، فاستوعبوا أناسيها، وامتعها وأشعلوا النار فيما بقي من سماط الأقمشة، فاتصلت النار بجدران الدور المبنية بالخشب، فلم تزل تشتعل الى أن ارتبطت بالجامع الأعظم، ووصلت الى سقفه، فذاب رصاصه، وتهدمت سقفه وحائطه، وكان هذا أمراً بلغ مبالغة من الشناعة والقبح (ابن خلدون، بدون سنة نشر ، ص ٤١٧؛ المصدر نفسه ، بدون سنة نشر ، ج ٧/ ص ٧٣٤؛ هاشم عثمان، ١٤١٤ - ١٩٩٤ م ، ص ٣٧). وقال بعض العلماء والخطباء إنه لم ينح من يد تيمورلنك أحد من العلماء سوى ابن خلدون ورجل ثان وقد ذكر هذا ابن عرب شاه في كتابه عجائب المقدور (التلمساني، ١٩٦٨ ، ج ٢/ ص ٥٢٣).

ونرى أن بعض المؤرخين ومنهم المؤرخ عرشاه قد وجه نقد لاذع بسبب عدم فعالية وجدوى وساطة المؤرخ ابن خلدون من منظور الضحية وليس تحليلاً لنية ابن خلدون. وهو يعكس كيف يمكن للحقيقة التاريخية أن ترى بزوايا متعارضة تماماً منظور المفاوض المنفذ ومنظور الضحية التي لم تنقذ كذلك صور ابن خلدون على أنه كمخدوع أو كمن قدم خدمة (كتابة تقرير عن المغرب) لقائد كان يخطط لغزوها لاحقاً هذه هي رواية المؤرخ ابن خلدون حول صلته بالفاتح التتري تيمورلنك وما وقع معه من مقابلات ومحادثات وقد كان يؤدي فيها دور السياسي القديم، لكن مؤرخاً مصرياً

كبيراً معاصر للحدث هو المقرئ يشرح هذه الحوادث تفصيلاً ثانياً فيقول لنا الذي فاوض تيمورلنك على تسليم مدينة دمشق هو القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي والذي تم إرساله من قبل الزعماء إلى تيمورلنك إجابة لطلبه في عقد السلام والصلح بعد أن فشل الفاتح من اقتحام المدينة بالقوة وأن ابن مفلح بذل كل جهوده ونفوقه لإقناع الزعماء من أجل التسليم وأنه هو الذي تدلى بعد هذا من السور مع جماعة من الأعيان والفقهاء وقادهم إلى معسكر الفاتح تيمورلنك وعقد معه الصلح وحصل منه على الأمان، ثم قام بعد ذلك بتنفيذ جميع رغائبه بجمع المال والأسلاب. ولكن تيمورلنك نكث بعد ذلك عهده، وقام بالقبض على ابن مفلح وزملائه، وداهم واقتحم جنده المدينة ونهبوها وشعلوا النار فيها (محمد عبدالله عنان، ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م، ص ٨٤). أما المقرئ يرى لقاء ابن خلدون مع تيمورلنك لحظة تفاوض رسمي ضمن استراتيجية استسلام دمشق. ابن خلدون بصفته القضائية السابقة كان أحد ممثلي النخبة الشرعية في المدينة المحاصرة. الاجتماع لم يكن اجتماع بين عبقريين، بل بين غاز منتصر ونخبة منهزمة تحاول تخفيف الضرر. وقد نجح جزئياً في الحصول على وعود لكنها لم تمنع الكارثة التي حلت بالمدينة (المقرئ، بدون سنة نشر، ج ٤/ ص ٦٩٢. ٦٩٣؛ رضوان، ٢٠٠٣ م، ص ٨٧، فياض، بدون سنة نشر، ص ١٠٤). أما رأي ابن حجر العسقلاني فإنه يرى ابن خلدون كثير المبالغة في مدح من يجالسهم وخصوصاً الأكابر منهم حتى صنف لتيمورلنك عندما التقى به رسالة في السياسة كان فيها من الإطراء ما يشين قائله (ابن حجر العسقلاني، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، ج ٣/ ص ٣٢٧؛ عبد الحليم عويس، ١٩٩٦، ص ٥٤) ونرى نحن من خلال هذه المقابلة هنالك نتائج مختلطة منها نتائج شخصية لأبن خلدون حيث عامل تيمورلنك أبناً خلدون معاملة خاصة يعمها الاحترام إذ استقبله استقبالا جميلاً وأجلسه إلى جنبه وقربه منه وتم تكريمه طيلة مدة إقامته بالمعسكر ونتيجة لهذه العلاقة خلص ابن خلدون نفسه من القتل والسبي فخرج من دمشق سالماً إلى القاهرة بعد انقضاء تلك الأحداث. وهنالك نتيجة جماعية لدمشق: إذ لم يحم الوعد مدينة دمشق من الخراب والدمار، مما جعل بعض من المؤرخين يتهمونهم بالسذاجة والتواطؤ. نتيجة تاريخية وفكرية: ترك هذا اللقاء وثيقة تاريخية نادرة عن صدام الفكر مع القوة، وأصبح نموذجاً للحوار المستحيل ما بين المنقذ والطاغية...

قائمة المصادر والمراجع

• ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠ هـ)

١- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (١٤٠٣ - ١٩٨٣ م)

• ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين (ت ٨٧٤ هـ)

٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسين شمس الدين، طبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ٢٠٠٥ م.

٣- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق الدكتور محمد أمين، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م)

• التلمساني، أحمد بن محمد المقرئ (ت ١٠٤١ هـ)

٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر - بيروت (١٩٦٨)

• ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)

٥- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، دار الجبل - بيروت (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م)

• ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الأشبيلي (ت ٨٠٨ هـ)

٦. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة/ سهيل زكار، دار الفكر.

٧- رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد بن تاووت الطنجي، الطبعة الأولى، منشورات محمد بوضون، دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان).

٨- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

٩- مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، الطبعة السابعة، دار نهضة مصر للنشر.

• السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ)

١٠- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد غسان نصوح، الطبعة الثانية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر (١٤٣٤ - ٢٠١٣ م)

• ابن عريشاه، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقي (ت ٨٥٤ هـ)

١١- عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أ. د. سهيل زكار، الطبعة الأولى ٢٠٠٨

• القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٣٢١ م)

١٢- مآثر الأنافه في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار احمد فراج، عالم الكتب.

• المقرئزي، احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي (٨٤٥هـ)

١٣- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٤- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الطبعة الاولى، مؤسسة الفرقان للتراث الاسلامي (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)

الرجع

• بدوي، عبدالرحمن

١٥- مؤلفات ابن خلدون، المجلس الاعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (٢٠٠٦).

• بانيله، حسين عبدالله

١٦- ابن خلدون وتراثه التربوي، الطبعة الاولى، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

• الجابري ، الدكتور محمد عابد

١٧- فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ، الطبعة الخامسة ، مركز دراسات الوحدة العربية - ١٩٩٢م.

• الخضير ، الدكتور زينب

١٨- فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، مصر (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

• الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (ت ١٣٩٦هـ)

١٩- الاعلام، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين (بيروت - لبنان ١٩٨٠)

• السيد، رضوان

٢٠- ابن خلدون في مرايا المؤرخين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت - ٢٠٠٣م)

• سركيس، يوسف بن إيلان بن موسى (ت ١٣٥١هـ)

٢١- معجم المطبوعات العربية، الناشر مكتبة اية الله المرعشي النجفي - قم المقدسة ١٤١٠.

• سليمان، دكتور احمد عبد الكريم

٢٢- تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، الطبعة الاولى، دار النهضة العربية للطبع والتوزيع (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)

• شهاب الدين، ضياء الدين رجب

٢٣- الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون، الطبعة الاولى، دار الفتح للطباعة والنشر (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)

• الطهطاوي، الشيخ احمد رافع (ت ١٣٥٥هـ)

٢٤- التنبيه والايقاف لما في ذيول تذكره الحفاظ، دار إحياء التراث العربي (بيروت - لبنان)

• العاملي، الشيخ علي الكوراني

٢٥- كيف رد الشيعة غزو المغول، الطبعة الاولى، مركز العلامة الحلي الثقافي، ١٤٢٦ - ٢٠٠٦م.

• العبد ، دكتور محمد

٢٦- نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون، الطبعة الاولى ، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الانسانية ، مصر - القاهرة (٢٠٠٩م).

• عبد الحكيم ، منصور

٢٧- إمبراطور على صهوة جواد ، دار الكتاب العربي ، دمشق - القاهرة .

• عثمان، هاشم

٢٨- مشاهد ومزارات آل البيت (ع) في الشام، الطبعة الاولى، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان (١٤١٤ - ١٩٩٤م)

• العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي (ت ١١١١هـ)

٢٩- سمط النجوم العوالي في أبناء الاوائل والتوالي، تحقيق عادل احمد عبد، علي محمد معوض، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية (بيروت -

لبنان).

• العصيمي ، د. عبدالمحسن بن أحمد

- ٣٠- مختصر مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الاولى ، قرطبة للنشر والتوزيع ، الرياض (١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م).
- عاصي، دكتور حسين
- ٣١- ابن اياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م)
- عويس ، عبد الحليم
- ٣٢- التأصيل الاسلامي لنظريات ابن خلدون ، الطبعة الأولى ، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بدولة قطر (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م).
- العلبى ، أكرم حسن
- ٣٣- تيمورلنك وحكايته مع دمشق، الطبعة الرابعة ، دار المأمون للتراث ، بيروت (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م)
- عنان المحامي، محمد عبدالله
- ٣٤- ابن خلدون حياته وراثته الفكري، الطبعة الاولى، دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م)
- فياض ، محمد محمد
- ٣٥- تيمورلنك ، دار المعارف بمصر.
- كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني (ت١٤٠٨ هـ)
- ٣٦- معجم المؤلفين، دار احياء التراث العربي (بيروت - لبنان)
- مفتاح ، الدكتور الجيلاني بن التوهامي
- ٣٧- فلسفة الانسان عند ابن خلدون ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية . بيروت - لبنان (٢٠١١).
- وافي، الدكتور علي عبد الواحد
- ٣٨- عبقريات ابن خلدون، ط١، عكاظ للنشر والتوزيع (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م).

المصادر الأجنبية

- إرون ، روبرت
- ٣٩- ابن خلدون سيرة فكرية ، ترجمة عبدالله مجير العمري ، الطبعة الأولى ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (٢٠٢٢ م).
- فيشل ، والتر ج
- ٤٠- لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة: محمد توفيق ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت.
- الرسائل والأطاريح الجامعية**
- مصلح ، حفظ الله ناصر عبدالله
- ٤١- تيمورلنك وشخصيته السياسية والعسكرية ، أطروحة الدكتوراه في قسم التاريخ ، اشراف الدكتور ابراهيم محمود زعرور، دمشق (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م).